العدد 1909 - السنة السابعة
الخميس 12 رمضان 1436 - الموافق 10 يوليو 2014
Thursday 10 July 2014 - No.1909 - 7th Year

الظاهر بيبرس قاهر التتار

مولده ونشأته

بيبرس قاهر التتار ولد السلطان المملوكي ركن الدين بيبرس البندقداري -الظاهر بيبرس- على أرجح الأقوال عام 625هـ/ 1221م في منطقة «قبرغيزستان» بوسط آسيا، وبيبرس كلمة تركية تعني أمير فهد، أخذ من بلاده وهو صغير وبيع بالشام للعماد الصائغ ثم اشتراه الأمير علاء الدين أيدكين الصالحي البندقداري وبه سمي البندقداري.[1] ثم آلت ملكيته للسلطان الصالح نجم الدين أيوب فأظهر بيبرس في خدمته همة وشجاعة ميزته بين أقرانه، فضمه السلطان الصالح إلى قوات الأمير «فارس الدين أقطاي» حتى أصبح من كبار القادة المماليك، وعندما وصل (لويس التاسع) بحملته الصليبية إلى مصر كان بيبرس من الذين تصدوا له في معركة المنصورة عام 1249م، فأسر لويس التاسع وانهارت حملته.

عقب اغتيال أقطاي وتولي السلطان عز الدين أيبك حكم مصر اضطر بيبرس إلى الانتقال إلى الشام، إذ لم تكن العلاقة بين أيبك وأقطاي على ما يرام، وبعد أن تولى الأمير قطز مقاليد الأمور في مصر قام باستدعاء بيبرس من الشام لمعاونته في إيقاف زحف التتار على الشرق، فتمكنا معا من سحق التتار في معركة «عين جالوت»، وعهد قطز إلى بيبرس بمهمة ملاحقة فلول التتار وتشتيتهم، في عام 658هـ/ 1260م تولى بيبرس حكم مصر عقب مقتل قطز.

برز في العصر المملوكي كثير من سلاطين المماليك كان لهم دور كبير في تغيير كثير من صفحات التاريخ، كما تركوا بصمات واضحة في التاريخ الإسلامي، وكان من هؤلاء ركن الدين بيبرس.

اتصف بيبرس بالحزم ، والبأس الشديد، وعلو الهمة، وبعد النظر، وحسن التدبير، واجتمعت فيه صفات العدل والفروسية والإقدام، فلم يكد يستقر في الحكم حتى اتخذ عدة إجراءات تهدف إلى تثبيت أقدامه في الحكم منها: التقرب من الخاصة والعامة؛ بتخفيف الضرائب عن السكان، كما عفا عن السجناء السياسيين، وأفرج عنهم، كما عمل على الانفتاح على العالم الإسلامي لكسب ود زعمائه[2]. وقام كذلك بالقضاء على الحركات المناهضة لحكمه، وأعاد الأمن والسكينة إلى البلاد[3].

أبلى بيبرس بلاء حسنا في خدمة الأمة والدين الإسلامي خلال فترة حكمه، وعمل على إنقاذ الخلافة الإسلامية من الانهيار بعد مقتل الخليفة العباسي على يد التتار عقب سقوط بغداد عاصمة الخلافة العباسية عام656هـ / 1258م وبقاء كرسي الخلافة خاويا، وتمكن من استقدام أحد أمراء الأسرة العباسية إلى القاهرة وبايعه بالخلافة في احتفال كبير عام 660هـ/ 1262م، فكان هذا العمل ذا أثر كبير في جمع شمل الأمة الإسلامية حول خليفتها مرة أخرى.

عندما توطدت دعائم سلطة المماليك، وقويت شوكتهم، نتيجة الإجراءات التي اتخذها «بيبرس»، رأى هذا السلطان ضرورة متابعة سياسة صلاح الدين الأيوبي وخلفائه في طرد الصليبيين، وإجلائهم عن البلاد الإسلامية، ولم يكن ذلك بالأمر السهل، فقد كان لزاما عليه أن يجابه ما تبقى من الإمارات الصليبية وهي أنطاكية، وطرابلس، والجزء الباقي من مملكة بيت المقدس، وحتى يحقق هدفه اتبع إستراتيجية عسكرية قائمة على ضرب هذه الإمارات الواحدة تلو الأخرى، ولم تنقض سنة من السنوات العشر الواقعة بين عامي (-659 669هـ/ -1261 1271م) دون أن يوجه إليهم حملة صغيرة أو كبيرة، وكان ينتصر عليهم في كل مرة[4].

فقد عمل بيبرس على تصفية الوجود الصليبي في الشام، وكان له الفضل في تطهير مدن قيسارية وأرسوف وطبرية ويافا وأنطاكية من الصليبيين.

قاهر الباطنية والرافضة

كما لم يدخر بيبرس وسعاً في التصدي لأي خطر خارجي على الدولة الإسلامية، فقد اتخذ نفس الأسلوب في التصدي لدعوات التخريب الداخلية التي تبنتها بعض الفرق التخريبية المعروفة بالباطنية والتي لم تكن أقل خطرا من التتار أو الصليبيين، فقد أشاعت الذعر بين الناس وعملت على نشر مذهبها المنحرف، ناهيك عن إعمالها السيف في الكثير من القادة والعلماء، الأمر الذي جعل مجرد ذكرهم مصدرا للذعر بين الناس، لذا فقد استعمل بيبرس الحيلة للقضاء عليهم وعهد إلى العلماء باستقطاب أكبر عدد منهم للعودة إلى صفوف الأمة، فتاب منهم من تاب ولم يبق إلا عناتهم الذين رفضوا العدول عن ما هم عليه، فقام بيبرس باقتحام قلاعهم وأماكن تمركزهم فقضى عليهم وشتتهم وخلص الأمة من شرورهم.

حرص بيبرس على تطوير الجهازين الإداري والعسكري، فاستحدث بعض الوظائف الإدارية لأن الوظائف التي عرفها المماليك وأخذوها عن الأيوبيين أصبحت لا تفي بحاجة الدولة الآخذة في التطور والتوسع فأنشأ وظائف جديدة لم تكن معروفة في مصر من قبل يشغلها أمراء يعينهم السلطان من بين الأشخاص الذين يثق بهم.

كان يتولى منصب القضاء في عهد الأيوبيين في القاهرة وسائر أعمال الديار المصرية، قاض واحد على المذهب الشافعي وله حق تعيين نواب عنه في الأقاليم، وأحيانا كان يعين قاض للقاهرة والوجه البحري، وظل الوضع على ذلك حتى عام(660هـ/ 1262م)، وما زال السلطان يطور النظام القضائي حتى ثبته وجعله مبدأ رسميًا في (شهر ذي الحجة عام 663هـ/ شهر تشرين الأول عام 1265م) فعين أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة وسمح لهم أن يعينوا نوابًا عنهم في الديار المصرية، فكان القاضي ابن بنت الأعز يمثل المذهب الشافعي، والقاضي صدر الدين سليمان يمثل المذهب الحنفي، والقاضي شرف الدين عمر السبكي يمثل المذهب المالكي، والقاضي شمس الدين المقدسي يمثل قضاء الحنابلة، وفعل مثل ذلك في دمشق.

وسن بيبرس عدة تشريعات لتهذيب أخلاق المصريين لعل أهمها الأمر الذي أصدره في عام (664هـ/ 1266م) ومنع بموجبه بيع الخمور، وأقفل الحانات في مصر وبلاد الشام، ونفى كثيرًا من المفسدين.[5]

- جدد بناء الحرم النبوي.
- جدد بناء قبة الصخرة في القدس، بعد أن تداعت أركانها.
- أعاد الضياع الخاصة بوقف الخليل في فلسطين، بعد أن دخلت في الإقطاع، ووقف عليه قرية اسمها بإذنا.
- بنى المدرسة الظاهرية بين القصرين، وعين فيها كبار الأساتذة كان من بينهم مدرس الحنفية الصاحب مجد الدين بن العديم، ومدرس الشافعية الشيخ تقي الدين بن رزين، وولى الحافظ شرف الدين عبد المؤمن الدمياطي مشيخة الحديث، والشيخ كمال الدين الحلبي مشيخة القرّاء.
- بنى مسجده المعروف باسمه في ميدان الأزهر في القاهرة باسم جامع الظاهر بيبرس.
- بنى مشهد النصر في عين جالوت تخليدًا لذكرى الانتصار على المغول.
- جدد أسوار الإسكندرية.
- أعاد بناء القلاع التي هدمها المغول في بلاد الشام مثل قلعة دمشق، قلعة الصلت، قلعة عجلون وغيره[6].
- عني بيبرس أيضا بالتجارة وسعى لتأمينها، وصك عملات خالصة نقية حازت على ثقة الناس، فازدهرت التجارة في عصره وعم الأمان ربوع دولته.

وفاة بيبرس

بعد حياة مليئة بالأحداث وبعد حكم دام لسبعة عشر عاما توفي الظاهر بيبرس في 676 هـ/ 1277م[7]، بعد أن اتخذ لنفسه مكانا رفيعا بين خيرة الحكام المسلمين، الذين ذادوا عن حياض الدولة الإسلامية ورفعوا عليها راية الدين خفاقة عالية، فأمن بفضلهم الناس وأينعت في عهدهم الأرض، ألا فرحمة الله على المجاهدين المخلصين.

الرسول صلى الله عليه وسلم يأمر صحابته للاستعداد للغزو

الرسول صلى الله عليه وسلم يأمر صحابته للاستعداد للغزو

في مثل هذا اليوم من شهر رمضان المبارك، أمر الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) صحابته بالإستعداد للغزو دون أن يخبرهم بالجهة التي يقصدها، ونجح المسلمون بعد أيام بقيادة أشرف الخلق مُحَمَّد (صلى الله عليه وسلم) في فتح مكة، ودخلها الرسول وهو يقول للذين عذبوه وطاردوه وحاولوا قتله وبذلوا الجهود الضخمة لقتله أصحابه مدة ثلاثة عشر عاما، ما تظنون أني فاعلا بكم، فيقولون له: خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم، فيقول مُحَمَّد (عليه الصلاة والسلام) : اذهبوا فأنتم الطلاقاء، وكانت هذه نفحة من نفحات النبوة العظمى ورائحة ذكية من روائح رمضان، دخل الرسول الكريم (عليه الصلاة والسلام) الكعبة المشرّفة وحطم الأصنام وطهر البيت الحرام. وكان وقت صلاة الظهر قد حان، فصعد بلال الحبشي فوق ظهر الكعبة مؤذنا للصلاة، تجاوبت أرجاء مكة لنداء الإيمان حتى يبقى هذا النداء خالدا على الأزل.

الروم ينهب مدينة دمياط

في مثل هذا اليوم من شهر رمضان المبارك فاجأ جيش الروم بقيادة تيودور الرابع، ملك الفرنجة، مدينة دمياط في مصر، بهجوم ليس له مثيل، كان ذلك في عهد خلافة المتوكل على الله، حيث كانت مصر ولاية إسلامية تابعة لنظام الخلافة، نهب الروم مدينة دمياط، ونشروا فيها الفساد، وأحرقوا المساجد والدور والمخازن، وبقروا بطون الحوامل وقطعوا أرجل الرجال، لكن المسلمين هبّوا لرد المعتدين، الذين عادوا إلى سفنهم في البحر، وقد هددت هذه الحملة نظام الخلافة الإسلامية، لكن الأمور تبدلت تماما لبداية الدولة الطولونيّة، ممثله بأحمد إبن طولون.

دخول أحمد بن طولون مصر:

في الثاني عشر من شهر رمضان عام 254هـ الموافق 3 سبتمبر 867م دخل أحمد بن طولون مصر من قبل باكباك والي العراق.

بناء جامع ابن طولون بالقاهرة:

في الثاني عشر من شهر رمضان عام 265هـ الموافق 7 مايو 879م ، بني جامع ابن طولون في القاهرة.

قيام الدولة العباسية الثانية:

في الثاني من شهر رمضان عام 331هـ الموافق 9 مايو 943م دخل توزون بغداد من قبل ناصر الدولة إبن حمدان وقيام الدولة العباسية الثانية.

رحيل الشاعر أبو عمر بن دراج

في مثل هذا اليوم من شهر رمضان المبارك رحل الشاعر الأندلسي المشهور أبو عمر أحمد إبن دراج القسطلي، هو أحمد بن مُحَمَّد بن العاصي بن دراج القسطلي الأندلسي أبو عمر.

شاعر كاتب من أهل (قسطلة دراج) قرية غرب الأندلس ، منسوبة إلى جده. كان شاعر المنصور أبي عامر ، وكاتب الإنشاء في أيامه. وأورد ابن بسام في الذخيرة نماذج من رسائله وفيضا من شعره. قال عنه الثعالبي في «يتيمة الدهر»: هو في الأندلس كالمتنبي في الشام. وهو من شعراء الذخيرة، إمتاز القسطلي بالمديح. وعمل كاتبا للمنصور إبن أبي عامر، من شعره:

ولما تداتت للوداع وقد هفا
بصبري منها أنة وزفير
تناشدني عهد المودة والهوى
وفي المهد ميغوم النداء صغير
عيي بمرجوع الخطاب ، ولفظه
بموقع أهواء النفوس خبير
عصيت شفيع النفس فيه وقادني
رواح بتداب السرى وبكور
وطار جناح البين بي وهفت بها
جوانح من ذعر الفراق تطير
لئن ودعت مني غيورا فإنني
على عزمتي من شجوها لغيور
ولو شهدتني والهواجر تلتظي
على ورقاق السراب بمور
أسلط حر الهاجرات إذا سطا
على حر وجهي والأصيل هجير
واستنشق النكباء وهي بوارح
واستوطئ الرمضاء وهي تفور
وللموت في عين الجبان تلون
وللذعر في سمع الجريء صفير
وله في الغزل
وحشية اللفظ ، هل يؤدي قتيلكم؟
دمي مضاع ، وجاني ذاك عيناك
إني أراك بقتل النفس حاذقة
قولي - فديتك - : من بالقتل أوصاك
مالي وللبرق أستسقيه من ظمأ
هيهات ، لا ري إلا من ثناياك
لولا الضلوع لطار القلب نحوكم
ضمي - يعينك - فوق القلب يمناك
أصليتني لوعة الهجران ظالمة
رحماك من لوعة الهجران رحماك
حاشاك أن تجمعي حسن الصفات إلى
قبح الصنيع بمن يهواك ، حاشاك
إن كان واديك ممنوعا فموعدنا
وادي الكرى فلعلي فيه ألقاك

رحيل الشيخ ابن الجوزي

في مثل هذا اليوم من شهر رمضان المبارك المصادف للخامس عشر من حزيران للعام الميلادي 1201، كان رحيل الشيخ عبد الرحمن بن عليّ، الشيخ الحافظ الواعظ، جمال الدين أبو الفرج، المشهور بابن الجوزي، القرشي التميمي البغدادي، الحنبلي، أحد أفراد العلماء، برز في علوم كثيرة، وانفرد بها عن غيره، وجمع المصنفات الكبار والصغار نحوا من ثلاثمائة مصنف، وكتب بيده نحوا من مائتي مجلد، تفرّد بفن الوعظ الذي لم يسبق إليه، وفصاحته وبلاغته وعذوبته وحلاوة ترصيعه ونفوذ وعظه وغوصه على المعاني البديعة، من مؤلفاته «زاد المسير» «جامع المسانيد» «تواريخ الأمم من العرب» المنتظم في تاريخ الملوك والأمم»، و«صفو الصفوة» و«أخبار الأذكياء» وغيرها الكثير، توفي في مثل هذا اليوم من شهر رمضان المبارك. وقد أوصى أن يكتب على قبره هذه الأبيات:

يا كثير العفو يا من كثرت ذنوبي لديه
جاءك المذنب يرجو الصفح عن جرم يديه
أنا ضيفٌ وجزاءُ الضيف إحسانٌ إليه

حظي «ابن الجوزي» بشهرة واسعة، ومكانة كبيرة في الخطابة والوعظ والتصنيف، كما برز في كثير من العلوم والفنون، وبلغت مؤلفاته أوج الشهرة والذيوع في عصره، وفي العصور التالية له، ونسج على منوالها العديد من المصنفين على مر العصور.

ولد ببغداد سنة [510هـ-1116م] وعاش حياته في الطور الأخير من الدولة العباسية، حينما سيطر الأتراك السلاجقة على الدولة العباسية.

وقد عرف بابن الجوزي لشجرة جوز كانت في داره بواسط، ولم تكن بالبلدة شجرة جوز سواها، وقيل: نسبة إلى «قرضة الجوز» وهي مرفأ نهر البصرة.

وقد توفي أبوه وهو في الثالثة من عمره فتولت تربيته عمته، فرعته وأرسلته إلى مسجد « مُحَمَّد بن ناصر الحافظ» ببغداد، فحفظ على يديه القرآن الكريم، وتعلم الحديث الشريف، وقد لازمه نحو ثلاثين عاما أخذ عنه الكثير حتى قال عنه: «لم أستفد من أحد استفادتي منه».

كان «ابن الجوزي» علامة عصره في التاريخ والحديث والوعظ والجدل والكلام، وقد جلس للتدريس والوعظ وهو صغير، وقد أوقع الله له في القلوب القبول والهيبة، فكان يحضر مجالسه الخلفاء والوزراء والأمراء والعلماء والأعيان، وكان مع ذيوع صيته وعلو مكانته زاهدًا في الدنيا متقللا منها، وكان يختم القرآن في سبعة أيام، ولا يخرج من بيته إلا إلى المسجد أو المجلس، ويروى عنه أنه كان قليل المزاح، يقول عن نفسه: «إني رجل حُبّب إليّ العلم من زمن الطفولة فتشاغلت به، ثم لم يحبب إلي فن واحد بل فنونه كلها، ثم لا تقصر همتي في فن على بعضه، بل أروم استقصاءه، والزمان لا يتسع، والعمر ضيق، والشوق يقوى، والعجز يظهر، فيبقى بعض الحسرات».

رحيل بن مالك الحيائي

في مثل هذا اليوم من شهر رمضان المبارك، رحل صاحب الألفيّة، إبن مالك أبو عبد الله الحيّاني، صاحب التصانيف، ولد في حيّان وتوفي بدمشق، هو لغوي أندلسي مشهور، ومن الأئمة المشهورين في علم النحو وسائر علوم اللغة العربية، إشتهر بألفيته في النحو، وقد سمّاها «الخلاصة»، وهي لأرجوزة من ألف بيت في القواعد، وطبعت ألفيته مرارا في الشرق والغرب، وشرحت على يد الكثيرين، وكانت وما تزال أساس كتب التدريس في علم النحو مع شرحها لإبن عقيل، وقد إشتهر هذا الشرح حتى قيل فيه، في «الألفية»، لألفية الحبْر إبن مالك بهجة على غيرها فاقت بألف دليل عليها شروحٌ ليس يُحصى عديدها، وأحسنها المنسوب لإبن عقيل ولإبن مالك «لامية الأفعال» و«شواهد التوضيح»، كان إبن مالك كثير الإجتماع بإبن خلكان، توفي إبن مالك في مثل هذا اليوم من شهر رمضان المبارك ودفن بسفح جبل قاسيون في سوريا.

مولد شيخ الاسلام سراج الدين

أبصر النور في مثل هذا اليوم من شهر رمضان المبارك، البُلْقيني، شيخ الإسلام، سراج الدين أبو حفص عمر بن رسلان بن نصير بن صالح الكناني، مجتهد عصره، وعالم المائة الثامنة، أخذ الفقه عن إبن عدلان والتقي والسبكيّ، والنحو عن أبي حيّان، وبرع في الفقه والحديث والأصول، وإنتهت إليه رياسة المذهب والإفتاء وبلغ رتبة الإجتهاد، وله ترجيحات في المذهب خلاف ما رجّحه النوويّ، وله اختيارات خارجة عن المذهب، وأفتى بجواز إخراج الفلوس في الزكاة، وقال: «إنه خارج عن مذهب الشافعيّ»، وله تصانيف في الفقه والحديث والتفسير منها «حواشي الروضة» «شرح البخاريّ» «شرح الترمذي» «حواشي الكاشف»، وولي تدريس الخشابيّة وغيرها، وتريس التفسير بالجامع الطولونيّ بمدينة القاهرة، قال عنه البهاء بن عقيل «هو أحقّ الناس بالفتوى في زمانه»، رحل في العاشر من شهر ذي القعدة سنة خمس وثمانمائة.

نزول ابن البيطار القيروان

في مثل هذا اليوم من شهر رمضان المبارك، نزل إبن البيطار القيروان، في رحلة للبحث عن خواص بعض النباتات، إبن البيطار هو أول عالم عربي اهتمّ بخواص النبات، وضع فيها كتاب «الجامع الكبير» حوى وصفا دقيقا لألفين من النباتات ولإبن البيطار كتاب «الأدوية المفردة». وله كتاب «الأفعال الغريبة والخواص العجيبة» ويُعدّان من أهم مراجع النبات والصيدلة قديما وحديثا، إنتقل إبن البيطار إلى تونس ومراكش، ثم عاد إلى مصر وأصبح فيها رئيس العشابين، وأغدق عليه الجاه والمال لبراعته وخدمته للإنسانية كلها.

مقتل الملك المظفر زين الدين حاجي

الملك المظفر زين الدين حاجي، من سلاطين الدولة المملوكية في مصر، قتل في مثل هذا اليوم بعد حكم دام سنة وثلاثة أشهر، ضمن سلسلة من الحكام الضعفاء في السلطنة المملوكية، قام السلطان حاجي بتقريب مماليكه منه وتوزيع الأموال عليهم، واضطهد طائفة أخرى من المماليك، وأخذ في ممارسة القسوة والظلم والطغيان على الشعب المصري، فتمرد عليه بعض المماليك وقتلوه.

مولد الحافظ الإمام زين الدين الزبيدي

في مثل هذا اليوم من شهر رمضان المبارك أبصر النور الحافظ الإمام زين الدين أحمد بن عبد اللطيف الزبيدي، محدث البلاد اليمنية، وهو عالم أديب، حدّث ببغداد ودمشق وحلب، روى عنه كثير من الحفاظ، كان خيّراً فاضلا، من أشهر كتبه «التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح».

احتراق المسجد النبوي الشريف للمرة الثانية

في مثل هذا اليوم من شهر رمضان المبارك الموافق للخامس من شهر تشرين الثاني للعام الميلادي 1481، إحترق المسجد النبوي الشريف للمرة الثانية، كانت الأمطار تهطل على المدينة المنورة بغزارة، فضربت إحدى الصواعق المئذنة الرئيسيّة، حيث كان رئيس المؤذنين الشيخ شمس الدين إبن الخطيب بها يؤذن للصلاة، فقضت عليه ، وسقط الهلال مشتعلا، وإنشق سقف المنارة، فالتهمت النيران سقف المسجد وإحترقت الجدران والكتب والمصاحف، وعجز الناس عن إطفاء النيران، وهلك في هذا الحريق بضعة عشر شخصا، حيث كتب أهل المدينة للسلطان قايت باي في مصر، فأرسل المؤن والعمّال وكل المواد لعمارته.

عدوان تايلاندي على المسلمين:

في 12 من رمضان 1425هـالموافق 26 من اكتوبر 2004م: مقتل 87 مسلما على يد قوات الأمن التايلاندية في مظاهرات قام بها آلاف المتظاهرين المسلمين في إقليم ناراتيوات الذي يقطنه غالبية مسلمة جنوب تايلاند للمطالبة بإطلاق سراح معتقلين مسلمين.